ملامح من ألفاظ البيئة الطّبيعيّة في شعر يوسف بن هارون الرّمادي الأندلسي (ت. 403هـ)

Features of the words of the natural environment in the poetry of Yusuf ibn Harun al-Ramadi al-Andalus

د. عمار عبد الرحمن إسماعيل أمبدة *

جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (السودان)

ammanb059@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/05/04	تاريخ: القبول: 2024/06/02	تاريخ النشر: 2024/06/30

الملخص: تناولت هذه الدّراسة ملامح من ألفاظ البيئة الطّبيعية في شعر يوسف بن هارون الرّمادي الأندلسيّ، وهدفت إلى معرفة هذه الألفاظ. ومن ثم الوقوف على أنواعها المتمثّلة في ألفاظ الطبّيعة الصّامتة، مثل: الريّاض، والورود والزّهور، والماء. وألفاظ الطّبيعة الحية، مثل: الفرس، كلب الصّيد، الطّيور. وألفاظ الطّبيعة الصّناعية، مثل: الأبنية، الثّياب، أدوات الكتابة، السّلاح. وألفاظ الطّبيعة السّماوية، مثل: القمر، اللّيل، النّهار، البرق، السّحاب. اتّبعت الدّراسة المنهج الوصفي الاستقرائي. وخلصت الدّراسة إلى عدد من النّتائج من حيث مجملها: يعد الرّمادي من ضمن الشّعراء الذين يمثّلون نهضة شعر الطّبيعة في الأدب العربي عموماً، وفي الأدب الأندلسي خصوصاً، وقد برهن على أصالة فنّه الشّعري بتجاوزه الأساليب القديمة، وإن كان يستدعي المعاني القديمة فهو لا يتّبع أسلوب القدماء في عرضها، وهذا ما يعكس شخصيته الدّائمة البحث عن الجمال الكامن في علاقة الإنسان بالطبيعة.

كلمات المفتاحيّة: طبيعة؛ رمادي؛ أندلس؛ بيئة؛ ألفاظ.

Abstract: This study dealt with features of the words of the natural environment in the poetry of Youssef bin Harun Al-Ramadi Al-Andalus, and aimed to know

these words. And then standing on the types of silent nature words, such as: Riyadh, roses, flowers, and water. And the words of living nature, such as: mare, hunting dog, birds. And words of industrial nature, such as: buildings, clothes, writing tools, weapons. And the terms of the heavenly nature, such as: moon, night, day, lightning, clouds. The study followed the inductive descriptive approach. The study concluded with a number of results in terms of its entirety: Al-Ramadi is among the poets who represent the renaissance of nature poetry in Arabic literature in general, and in Andalusian literature in particular.

Keywords: nature; ashen; andalusia; environment; words.

1. مقدمة

تنعم البيئة الأندلسيّة بجمال مبهر وروعة آسرة، وتصطبغ بظلال وارقة وألوان ساحرة، تتنفّس بجوٍّ عبق عطر يضاف من روعته وبهائه ما يخلّل جنباتها من مواطن السّحر ومظاهر الفتنة التّي تبعث الانبهار والدّهشة في النّفوس (الرّكابي، 1960م، ص126). وقد انعكس ذلك في شعر الأندلسيين بشكل عام، حيث ازدحم بصورة متنوّعة ملوّنة تمثّل البيئة الطّبيعيّة في هذه الرّقعة المسماة بالأندلس.

ومن هنا نجد تعلّق الأندلسيين بها، يسرحون النّظر في خمائلها، وأخذ الشّعراء والكتّاب ينظّمون درراً في وصف رياضها ومباهج جنانها. فها هو ابن خفاجة (ت. 533هـ) شاعر الطّبيعة الأوّل في الأندلس يقول فيها: (ابن خفاجة، 1960م، ص364) [البسيط]

يا أهلَ أندلسٍ لله درّكُمُ ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جنّةُ الخُلدِ إلّا في دياركُمُ ولو تخيّرتُ هذا كنتُ أختارُ

لا تَحْسَبوا في غدٍ أن تَدخُلوا سَقَراً فليس تُدخَلُ بَعدَ الجّنة النّارُ

ولم يكن جمال الطّبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطّبيعة هذا، بل أن حياة المجتمع الأندلسي أثّرت أيضاً في هذا الشّعر، الذي يمثّل تعلّق الشّعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، ولكون الشّعر عندهم يصف طبيعة الأندلس سواء الطّبيعة الصّناعيّة، فهم يصورونها عن طريق الطّبيعة كما أبدعها الله تعالى في الحقول والرّياض والأنهار والجبال والسّماء والنّجوم، ويصفونها كما صوّرها الفن لديهم في القصور والمساجد والبرك والأحواض وغيرها.

ويوسف بن هارون الرّمادي شاعر الطّبيعة ومصوّرها، نجده قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطّبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صورة مختلفة من الجمال اللّفظي، فاتقى الأساليب الصّافية والألوان الزّاهية، ودبّجها بزخرف البديع، ووشّحها بكثيرٍ من المجاز والتّشبيه.

ومن ثمّ تقوم الدّراسة على تحديد أهمّ ألفاظ البيئة الطّبيعيّة وروداً في شعر الرّمادي. وتتناول المضامين من خلال المادة الشّعرية التّي عبّرت عن هذا الموضوع، لذلك تلجأ الدّراسة إلى المنهج الوصفي الاستقرائي. اشتملت الدّراسة على ستة عناوين، خصّص الأوّل منها للحديث عن القول في طبيعة الأندلس، أمّا العنوان الثّاني: فقد تناول قاموس ألفاظ البيئة الطّبيعيّة عند الرّمادي، وتناول العنوان الثّالث: ألفاظ الطّبيعة الصّامتة، وقد ضمّ (الرّياض، الورود والزّهور، الماء). أمّا العنوان الرّابع: فقد تناول ألفاظ الطّبيعة الحيّة، مثل: (الفرس، كلب الصيد، الطّيور). وتناول العنوان الخامس: ألفاظ الطّبيعة الصّناعية، وقد ضمّ (الأبنية، الثّياب، أدوات الكتابة، السّلاح). وأخيراً كان العنوان السّادس: ألفاظ الطّبيعة السّماوية، مثل: (القمر، اللّيل، النّهار، البرق، السّحاب).

2. ما قيل عن طبيعة الأندلس

وهب الله الأندلس طبيعة فاتنة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً، وأوفرها جمالاً؛ إذاً تتميّز الأندلس بطبيعة خلّابة حيث تقع في موقع فريد جغرافياً وطبيعياً، (وتمتد بين الجبال والبحار والوديان في أزهى ما تكون الآفاق، وأخصب ما تكون البقاع)، وتتمتّع الأندلس بطبيعتها الفاتنة بما فيها من سهول، ووديان، وأنهار، وبرك، وجبال، وغابات، وأشجار، وأزهار، وبساتين، ومنتزهات، وهناك السّدود، والنّواعير، إضافةً إلى قصورها، وأبنيتها الفخمة، وهذا ما خطف ألباب الشّعراء للتّغني بجمالها، ووصف مفاتنها ومشاهدها، فانفتحت قرائح الشّعراء، وأخذوا ينظمون شعرهم درراً في وصف جمال رياضها، ومباهج جناتها فما أن يهب نسيم عليل، ويفتح زهر جميل حتّى يقولوا أجمل الأشعار (الرّكابي، 1960م، ص156).

فهذا ابن سهل الإشبيلي (ت. 649هـ) يتفنّن في شعر الطّبيعة ويصوّر الأرض، وقد لبست ثوباً أخضراً، والمطر الخفيف يتساقط كأنّه جواهر قد انتثرت على الرّبا، وبرع في وصف رائحة الزّهور لمّا تحولت كافوراً وغدا التّراب كالمسك، وأبدع لمّا شخّص السّوسن مصافحاً الورود كأنّه ثغر يقبّل خدّها، وبرز جمال الصّورة الفنّية للنّهر الممتد كالسّيف في هذا البستان الأخضر البديع. فيقول: (ابن سهل،2003م، ص36) [الكامل]

الأرضُ قد لَبِسَت رِداءً أخضَرا والطّلُّ يَنثُرُ في رُباها جَوهرا

هاجَت فَخِلْتُ الزّهر كافوراً بها وَحَسِبتُ فيها التُّربَ مِسكاً أذفرا

وكأنّ سَوسَنَها يُصافِحُ وَردَها ثَغْرٌ يُقَبّلُ مِنهُ خَدًّا أحمَرا

والنّهرُ ما بين الرّياضِ تَخالُهُ سَيفاً تَعَلَّقَ في نِجادٍ أخضَرا

ومن هنا تشكّلت صورة الأندلس في الأذهان متقاربة في أوصافها وألوانها... هذه الصّورة على العموم تأخذ عطرها وعبقها وملامحها وألوانها من الطّبيعة، فهي أقرب إلى لوحة فنيّة ناطقة، إنّها بستان زاهٍ أو حديقة غنّاء أو واحة خضراء.

وقد شاع هذا الفن لدى الأندلسيين وتوسّعوا فيه فأصبح العامل الكيميائي المساعد كما يقول د. إحسان عبّاس:" يدخل في تركيب جميع فنونهم الشّعريّة الأخرى وفي شتّى الأغراض حتّى تلك المجالات التّي لا تسمح طبيعتها لمثل هذه الصّور والألوان الشّعريّة مثل الرّثاء وغير ذلك" (محمد رضوان، 2002م، ص121) وقد بلغ ولعهم بالطّبيعة والاستعانة بها في أغراضهم الشّعريّة حدًّا يصعب معه على القارئ أن يدري إذا كان الشّعراء يتحدّثون عن الطّبيعة أم كانت الطّبيعة تتحدّث عنهم لفرط ما تغلغلت في نفوسهم ولكثرة ما وصوفوا من مناظرها (محمد رضوان، 2002م، ص121). ودفعهم ولعهم هذا إلى تأليف كتب ورسائل خاصّة في هذا الباب من ذلك مثلاً كتاب "الحدائق" لابن فرج الجياني (ت. 366ه)، وكتاب "البديع في وصف الرّبيع" لأبي الوليد إسماعيل الحميري (ت. 440ه)، وغيرها.

ولسنا نريد أن نتوسّع في الحديث عن شعر الطّبيعة... ولكن ينبغي أن نحدّد مفهوم شعر الطّبيعة وحده وتعريفه، ثم بعد ذلك نقف عند شعر يوسف بن هارون الرّمادي لمعرفة مدى تحقق ذلك المفهوم في شعره. يقول الدكتور جودت الرّكابي: "إنّ شعر الطّبيعة هو الشّعر الذي يمثّل الطّبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيده جمالاً خيال الشّاعر، وتتمثّل في نفسه المرهفة وحبّه لها واستغراقه بمفاتنها" (يوسف، 2006م، ص844)

3. قاموس الألفاظ الطّبيعيّة عند الرّمادي

افتتن الرّمادي بطبيعة الأندلس كغيره من الشّعراء خاصة والنّاس عامة، وهو ابن إحدى قرى شلب (رمادة) عاش فترة طويلة من الزمن (حوالي المائة عام) متنقلاً بين مدن الأندلس الأخرى إلى أن طاب به المقام في قرطبة، ونزل في رحاب خلفاء الدّولة الأمويّة بالأندلس، حيث قام في بلاط المستنصر(ت. 366ه) ومن بعده ابنه هشام (ت. 403ه)، وفي أثناء انتقاله بين مدن الأندلس وصف طبيعتها، ووصف الطّبيعة عند الرّمادي بقي ضمن إطار الصّورة فلم يفتح فيه أبعاداً جديدة بل بقي بمثابة الخلفيّة المضيئة لمجلس الخمر أو الحب. ومع أنّه يتناول الوصف لذاته كوصف حمامة أو سحابة أو زهرة فإنّ أوصافه تفصيليّة تصويريّة لا تدخل حيز

البوح النّفسي والتّعاطف والتّماثل. ومثل ذلك عندما زار أحد أصحابه فقدّم إليه فيما أكرم به طبقُ وردٍ، وكان في فصل الشّتاء فاستغربه ثم أخذ منه وردةً واحدةً، وقال بديهةً: (الرّمادي، 1980م، ص53) [الرّمل]

يَا خُدُودَ الحُور في إخْجالها قَدْ علتها حُمْرَةٌ مُكتَسَبهْ

اغْتَرَبْنَا أنْتِ من بَجَّانَةٍ وأنا مُغتربٌ من قُرطبهْ

واجتَمعنا عِنْدَ إخوان صفاً بالنّدى أموالُهم مُنْتَهَبَهْ

وفي الأبيات أضفى على الوردة حياة مشخّصة وأقام مماثلة ومشاركة عاطفيّة بينه وبينها قائمة على موضوع الاغتراب. ونجد الرّمادي في كثيرٍ من شعره سار على منظوم القصيدة العربية القديمة كما وصل إليه من العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى الأندلس بدعوة من حكّامها، وهكذا كان الكثير من شيوخ العرب في زمن الرّمادي يقولون: " فتح الشّعر بكندة وختم بكندة، يعنون امرئ القيس والمتنبي والرّمادي" (الرّمادي، 1980م، ص40). ومن هنا كان يمثّل الرّمادي في كثيرٍ من شعره الموروث الشعري العربي كما أخذه عن أبي علي القالي (ت. 356هـ) صاحب كتاب "الأمالي"، وهو أخيراً ابن البيئة الأندلسية بطبيعتها الأخاذة وتمازجها العِرقي، الاجتماعي والثّقافي (الرّمادي، 1980م، ص40).

من هنا نجد أنّ الرّمادي حين أراد أن يمدح القالي وهو علم من أعلام اللغة والرّواية اضطّر لكي يثبت شاعريته وتفوقه أن يلتزم هذا النّوع من الشّعر الكلاسيكي ولما انضم الرّمادي إلى جماعة المستفيدين من القالي ودرس عليه أخذ عنه الكثير من ألفاظ القدماء وطرق نظمهم فكان يعود إلى هذا القديم كلّما أراد أن يخاطب أحداً من الطّبقة الارستقراطية أو يوجّه شعره إلى المحافظين (الرّمادي، 1980م، ص45). ونجده في القصيدة التّي مدح فيها القالي يبتدئ بمقدمة غزليّة ينحو فيها منحى العذريين فيجيد، ومطلعها: (الرّمادي، 1980م، ص111) [الكامل]

مَنْ حاكمٌ بيني وبينَ عذولي الشّجْوُ شَجْوى والعويلُ عويلي

ثم يمهّد للانتقال لمنظر الصيد يبتدئ بذكر فرسه فيصب في وصفها المعجم العربي في وصف الخيل مستعيناً بقاموس القدماء خاصة امرئ القيس... يقول في القصيدة نفسها:

قد اغتدى والصّبحُ في نوريسه تقضي العيونُ له بوجهِ عَليل

بأقبَّ لونِ الآبنوس مفضضٍ في غُرّةٍ منه وفي تحجيل

مستغرق لصفات زيدِ الخيل والـ غنوي والمُزنيّ والضّليل

ويمضي هكذا إلى أن ينتقل لوصف السّماء حتى تكتمل أبعاد اللّوحة فيرسم صورة السّحاب والمطر ويستعمل فيها الألفاظ ذات الرّنين والدّوي الموسيقي. وكأنّ عين الشّاعر عدسة (كاميرا) تحيط بكل أبعاد المنظر فتلتقط لمعان حبّات المطر على السّندس الأخضر وانعكاس الشّمس على هذا المنظر فيصف الرّوض الذي اكتسى حلّة من الألوان والضّياء، فيقول:

فكأنها جيشٌ بدهم خيول غاز إلى جيش بِشُهبِ خيول

قامت رواعدها له بطبول في حربها وبروقها بنضول

بكتِ السّحاب على الرّياض فحسنت منها غروساً من دموع ثكول

فكأنّها والطّلّ يشرق فوقها وشيٌ يحاك بلؤلؤ مفضول

غلبت على شمسِ النّهار فألبَستْ منها ظهيرتها ثياب أصيل

إن الرّمادي شاعر بارع في التّقليد والإبداع معاً، وقد تجلى إبداعه في شعره الذي جعل في الطّبيعة روحاً نابضة الحياة، وقلباً يغدق من دمه ليروي ظمأ الحنين، وشمساً تشع دفء الشّوق في العروق، وقمراً ينير ظلمة الطّريق كلّما اشتدّت المحنة وانطفأت شموع الطّريق.

إنّ نظرة شاملة في شعر الرّمادي ترينا مدى سيطرة الطّبيعة على شعره، وحضورها في معظم أغراض شعره، مدحاً ورثاءً ووصفاً وحديثاً عن الخمر واللّهو والمجون تلك التّي كانت نشأتها في أحضان الطّبيعة أصلاً. فأغدق عليها الرّمادي من فيض ألفاظه الجزيلة وقوّة عباراته ليرسم أجمل الصّور وأبهاها منطلقاً من طبيعة مفعمة بكلّ أسباب الحياة. لذا فقد كان معجم الرّمادي الطّبيعي ثريًّا وغنيًّا بألفاظ الطّبيعة سواء كانت طبيعة صامتة أو حيّة، فقد ناصفت الشّاعر قصائده على السّواء لترسم حضوراً يبعث الحياة في الصّخر الأصم.

إنّ الطّبيعة وألفاظها والحديث عنها كلّ ذلك جاء ممتزجاً في أغلب الأحيان بالفنون الأخرى من مدح ورثاء ووصف وحديث عن الخمر ومجالس اللّهو والطّرب. وهي:

الطّبيعة والغزل: الأمر الذي يستوقفنا ونحن ندرس الشّعر الأندلسي هو" التصاق المرأة بالطّبيعة، ففي الأوصاف نجد المرأة ذات صلة وثيقة بكلّ مظهر من مظاهر الجمال في الجنائن وجداول الماء، وقلّما يذكر الشّاعر حجراً كريماً أو زهرة جميلة، ولا يشبهها بثغر أو خدّ أو عين" (حنا الفاخوري، 1986م، ص85) لشعر الغزل عن الرّمادي مكانة خاصة، وكان ينساب على شفاهه إنسياباً فيصف محاسن المرأة ويتغنّى بمحاسنها، والرّمادي في غزله كان متأثّراً بالطّبيعة الجميلة التّي عاش في رحابها، لهذا جاء شعره مستمداً من صور تلك الطّبيعة نحو قوله: (الرّمادي، 1980م، ص61) [الخفيف]

وتَنَعَّمتُ في خدودٍ صباحٍ زائداتٍ على بياضِ الصّباحِ

صار فيها الخيلانُ في الورد شِبْهاً للغوالي في أحمر التُّفاحِ

يتغزّل في المحبوبة غزلاً حسيًّا خالصاً، فيصف مفاتنها الجسديّة، ويمزجها بالطّبيعة. ويشبّه خدودها بضياء الصّباح، والخيلانُ في الخدود كالورد، ولونها كحمرة التّفاح. وقال في نصٍّ آخر مزجه بين الطّبيعة والغزل: (الرّمادي، 1980م، ص133) [الكامل]

وَمُحَيَّرِ اللّحظاتِ تَحْسَبُهُ لحيرتِهِنَّ من سِنَةِ المنام منها

وبياضُهُ في شُقْرَةٍ فتقارنا حُسناً بلا ضدٍّ فكانا أشبها

كسلاسل الذّهب المُورَّسِ فوق وجـ ـه من لُجين بالملاحةِ قد زها

وكذا الصَّباحُ بياضهُ في شُقْرَةٍ فكأنّه بهما غدا مُتَشَبِّها

وإذا بدا التّوريد في وجناتِهِ فكأنّه صَرْفُ المدامةِ في المها

لقد كان لجمال الطّبيعة الأندلسيّة بالغ الأثر في نزعة الشّعراء الجماليّة المرهفة التّي أدت إلى تمثلهم بالطّبيعة في وصف المرأة، وكان عالم الحب- في غالب الأحيان- مصدراً مهمًّا لاستعارات الشّعراء وتشبيهاتهم في وصف الطّبيعة" وهي ظاهرة جديدة ... أغنت هذا الموضوع بأنبل العواطف والإحساسات الإنسانيّة، وأفسحت المجال حيال الشّعراء لإسقاط خلجاتهم وعواطفهم الغراميّة على الطّبيعة" (عبد القادر، د. ت، ص88).

الطّبيعة والخمر: ولما كانت مجالس الأنس واللّهو التّي يرتادها الشّعراء والمحبون كثيراً ما تعقد في أحضان الطّبيعة، فإنّ هذا الفن تميّز بتداخل الخمر والطّبيعة والمرأة فيها (عبد القادر، د.ت، ص88). وقد هتف الرّمادي بالخمرة في أحضان الطّبيعة حيث الرّوض المزهر والعطر الفوّاح والظّلال الوارفة والأنهار الجارية والنّسيم والطّيور المغرّدة. ويروق الشّاعر إلى مكان شرب الخمر واللّهو وهو مكان تجمع الورود حيث أوتار مخضوب البنان كأنّها حمامٌ يصيح بهديله، يقول: (الرّمادي، 1980م، ص104) [الطويل]

على الوردِ منّي أنْ تَوَ لَّى تَحِيّةٌ وإن ما مضى إقْبَالُه ورحيلُهُ

لقد كنتُ أُسْقَى فوقه الرّاحَ فوقنا من اللّهو ظلٌّ لا يزولُ ظليلُهُ

وأوتارُ مَخْضُوبِ البَنَانِ كأنّها حَمامٌ وصبري حين طلَّ هَديلُهُ

كما يوحي له منظر النّدماء في تقديم الخمر وشرابها، فله نديمان رشيقان (ساق وقينة) كالطّاووس والورشان وهو (طائر شبه الحمام) في حركتهما لتقديم الخمر فيقول: (الرّمادي، 1980م، ص127) [الطّويل]

ليالي بعتُ العاذلين أمامي بفتكي ووليتُ الوشاة أذاني

وإذ لي نديمان ساقٍ وقينةٌ رشيقان بالأرواح يمتزجان

أمدُّ إلى الطاووسِ في تارةٍ يدي وفي تارة آوي إلى الوَرَشان

وكنت أديرُ الكأس حتّى أراهما يميلان من سكرٍ ويعتدلان

هذه الأوصاف لجوّ الخمر وندمائها عند الرّمادي، تشير إلى أنّ الخمر ليس وسيلة لطلب المتعة واللّهو وليس غاية تطلب لذاتها، وليست إلّا جزء من كلّ الوسائل المعروفة في الطّبيعة لطلب المتعة، وإيغال الشّاعر في حبّ الطّبيعة قد طغى على موضوع الخمر في شعره، والطّبيعة عنده هي الغاية والخمر خادم للوصول إليها.

الطّبيعة والمديح: إنّ ظاهرة مزج الطّبيعة بغرض المدح كانت عادة مشرقية، خاصة عند أبي تمام والبحتري، قبل أن تكون أندلسية إلّا أنه كان يجري في حذر شديد، وفي الأندلس علا صوته وصار أكثر صراحةً ووضوحاً. والشّاعر الرّمادي ردّد الأوصاف التّي دأب شعراء العرب على استعمالها في مدح الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء، ويعرضها بطريقته الخاصة، منسجمة مع ذوقه وحسّه المرهف، فقد أصبحت الطّبيعة عنده متكأً ومفترشاً للمديح فيقول: (الرّمادي، 1980م، ص116) [الكامل]

روضٌ تعاهده السّحابُ كأنّه متعاهدٌ من عهدِ إسماعيل

قِسْهُ إلى الأعراب تعلم أنّه أولى من الأعراب بالتّفضيل

حازتْ قبائلهم لغاتٍ جمعت فيهم وحاز لغاتِ كلّ قبيل

فالشّرق خالٍ بعده فكأنما نزل الخراب بربعه المأهول

جمعوا بغيبته وموتِ شيوخه عنهم ولما يظفروا ببديل

مُذْ جاءهم وهمُ بليل همومهم منه فصاروا في دُجى موصول

فأنّه شمسٌ بَدَتْ في غربنا وتَغَرَّبَتْ في شرقهم بافول

يا سيدي هذا ثنائي لم أقل زوراً ولا عرَّضتُ بالتّنويل

من كان يأمل نائلاً فأنا امرؤٌ لم أرْجُ غَير القُربِ في تأميلي

شبّه العالم أبا علي القالي- صاحب كتاب الأمالي- بعد قدومه إلى الأندلس بأنّه شمسٌ بدت في الغرب- أي الأندلس- وتغرّبت في الشّرق، فالشّرق بعد رحيله أصبح خالي ونزل به الخراب في كلّ ربوعه، وأنّ النّاس قبل دخوله إلى الأندلس كانوا يعيشون في جهل وظلامٍ، وبعد قدومه إليها صاروا في نورٍ من العلم.

الطّبيعة والرّثاء: قلّ غرض الرّثاء في شعر الرّمادي مقارنة مع قصائد المديح، وهي قصائد فيها من مرارة العاطفة وصدق الشّعور ما فيها، وفيها من المعاني الشّجية الرّقيقة والصّور الحزينة ما يبعث على التأثر، بفعل ما شهده عصره من أحداث دامية أدّت به إلى فراق أحبته الذين أبعدهم شبح الموت عن الحياة، إذ يصور حالته الشّعورية، مستوحياً عناصر الطّبيعة، بعد فقده لإحدى الأشخاص يسمّى أبو العباس فيقول: (الرّمادي، 1980م، ص76) [الطّويل]

تأمَّلتُ من بين الدُّمُوعِ كأنّما تأمَّلْتُ من بين السّحاب المواطرِ

مَحَلَّ أبي العباسِ حيثُ عهدتُهُ لعلَّ أبا العباسِ يبدو لناظري

فلمّا انْثَنَتْ عيني ولم تَر شَخْصَهُ رجعتُ إلى تمثاله في خواطري

كأنّا تَمَتَّعْنا لِقلة عمره بلمحةِ برقٍ أو بلمحة طائرِ

فإنْ يتّخِذْ بين المقابرِ مَوْطِنا فأوطانُنا من بعده كالمقابرِ

وقالوا صغيرٌ فاصطبر لمصابهِ فقلتُ أشَدُّ الفقد فَقْدُ الأصاغرِ

وفي الأبيات اتّخذ الشّاعر من مظاهر الطّبيعة وسيلة للتّعبير عما يجيش بصدره من أحزان، فقد ذكر السّحاب الممطر الذي شبّهها بدموعه أثناء بكائه لمفقوده، وأيضاً ذكر الألفاظ الطّبيعية التّي تدلّ على موته السّريع وهي: (لمحة برق، أو لمحة طائر).

4. ألفاظ الطّبيعة الصّامتة

لقد استحوذت الطّبيعة الصّامتة على كيان الرّمادي، فقد كانت تحيطه كغيره من الشّعراء من كلّ جانب برياضها الغنّاء ومناظرها الآسرة، فكثيراً ما تقع عيناه على البهجة والتّناسق، وتطالعه الخضرة والمياه العذبة، كما كان يعطّره أريج الأزهار والورود، لذا فقد رأينا الطّبيعة حاضرة في مدحه ورثائه، وفي خمرياته كما كانت تطلّ في غزله، ومن هنا فقد أكثر من الحديث والوصف عن الرّياض، والبساتين والأشجار، وما فيها من زهور وورود وثمار وأغصان تتغنى فتنةً وجمالاً، كما أبدع في وصف الأنهار، والسّماء والأمطار، وذكر البرق والرّعد والنّجوم، ووصف الظّواهر الجويّة المختلفة، كاللّيل والنّهار والصبح، فلم يترك شيئاً منها إلّا نظم واصفا إياه. ولم يترك شيئاً له أثر في النّفس أو إثارة في الوجدان أو روعة في الجمال، إلّا أبحر في وصفه، وأعمل في خياله وفكره. ومن هنا نتحدّث عن ألفاظ الطّبيعة الصّامته في شعره، وهي:

4. 1. الرّياض: نجد في الأندلس عدداً كبيراً من البرك، والرّياض الأنيقة، والأودية المتحولة إلى منتزها ساحرة، وهكذ فالأندلس أصبحت ميداناً واسعاً للعيش الرّخي مع ما اعتر البلاد من فتن واضطرابات سياسية، وكثيراً ما رأى فيها النّاس جنة نعيمهم (حنا الفاخوري، 1986م، ص52).

افتتن الشّاعر بالرّوض في تصوير مظاهر تساقط قطرات المطر على الرّياض فتبدو كاللؤلؤ تحت ضياء الشّمس بعد أن انقشع عنها الضّباب، فيزداد الرّوض جمالاً وبهاءً، ولا يفوّت الشّاعر الفرصة لدينا بغناء الطّراة من الذّباب ممّا يجعله يبتهج طرباً يعكس من خلاله مشاعره الدّفينة. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص116) [الكامل]

بكتِ السّحابُ على الرّياض فحسنت منها غروساً من دموع ثكول

فكأنّها والطلُّ يشرقُ فوقها وشيٌ يحاك بلؤلؤ مفضول

غَلَبتْ على شمس النّهار فألْبَسَتْ منها ظهيرتها ثياب أصيل

فنزلتُ في فرش الرّياض ولم يكن ليحوزها مثلي بغير نزول

غَنَّى الطُّراةُ من الذّباب لنا بها طرباً فهجن شمائلاً بشمول

وقال في وصف روضٍ حوله مجموعة من الورود- خصوصاً- وردة الياسمين: (الرّمادي، 1980م، ص63) [مخلّع البسيط]

انْظر إلى روضِ ياسمينٍ يَرِد الوَردُ وهو وارِدْ

كأنّه عِدَّةً ولوناً أكُفُّ حُورٍ بلا سَواعِدْ

كما تفنّن في تصوير روضٍ تتعالى فيه أصوات الطّيور بالغناء، ومنها الطائر المعروف عند المشارقة بأم الحسن، فهي تتغنى في رجزٍ فإذا امتدّت في الغناء تغني في هزج، وهنا أشار

الشّاعر إلى أكثر البحور الشّعريّة المستخدمة في ضروب الغناء وهي الرّجز والهزج. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص59) [الرّمل]

أعرسَ الرّوضُ ومن قيناته أُمُّ من خالف في الاسم السّمِجْ

تتغنّى أولاً في رَجَزٍ فإذا امتدت تُغنّى في الهزج

4. 2. الورود والزّهور: لقد برع الرّمادي في تصوير الرّياض بكلّ ما تشتمل عليه من ورودٍ وزهورٍ وطيورٍ وأنهارٍ وغيرها، فقد نالت الورود والزّهور عناية كبيرة عنده فقال فيهما: (الرّمادي، 1980م، ص62) [السّريع]

للآس والسّوسن والياسمين الغض والخيري فضلٌ شديد

سادت به الرّوض ومن بينها وبين فضلِ الوردِ بَوْنٌ بعيد

هل لك في الآس سوى شَمَّةٍ تطرحُه من بعدها في الوقود

والسَّوءُ في السّوسن عام وفي ساعة سوء قد تُزارُ اللّحود

والياسمين الياسُ في بدئه فهو لمن يَطمعُ همٌّ عتيد

أخلّ بالخيري خُلقٌ كخلق اللّص يستيقظ بعد الهجود

وفي الأبيات فضّل كلّ من زهر الآس والسّوسن والياسمين والغض والخيري على سائر الورود في وجه الأرض، ومن المعروف لكلّ زهرة من هذه الزّهور خاصية تتميز بها عن الأخرى- خصوصاً- في المجالات الطّبية، والخاصيّة المشتركة بين هذه الزّهور جميعاً أنّها تستخدم في صناعة العطور، ولذلك لرائحتها الجميلة والفريدة.

وقال أيضاً مشخّصاً كلّ من ورد الغضّ والأقاحي، كأنّهما خدود عذاري- فتاة بكر طاهرة- ذا حيا وخجل، وأفواه حور- نساء جميلات- لو سمحن بمنطق: (الرّمادي، 1980م، ص94) [الطّويل]

وفي الورد غضًّا والأقاحي محاسنٌ سُرِقْنَ من الأحباب للمتشوّقِ

خدودُ عذاري لو تقصَّى حياؤها وأفواهُ حورٍ لو سَمَحن بِمَنْطِقِ

ولم يغفل أن يصوّر كلّ وردة وزهرة لوحدها ، والأندلس عرفت أنواع كثيرة من الأعشاب والأزهار الطّيبة الرّيح الحسنة المنظر، يقول في وصف زهرة السّوسن مشبهها بالسّوالف البيض التّي أعارت عيونها كلّ حسن وأنوفها كلّ طيب، يقول: (الرّمادي، 1980م، ص52) [الخفيف]

سوسنٌ كالسّوالف البيض لاحت لِمُحبٍّ مُتيَّمٍ من حبيب

قد أعارت عُيونها كلّ حُسنٍ وأعارت أنُوفَنا كلّ طيب

بعضُها عاشقٌ لبعضٍ فبعضٌ لِمُحبٍّ والبعضُ للمحبوب

فهما وهْو في جميع المعاني كحبيبٍ وعاشقٍ ورقيب

وقال في وصف النيلوفر، وهو نبات مائي معمّر ذو جذور عميقة ينبت في المياه الرّاكدة: (الرّمادي، 1980م، ص67) [المنسرح]

إذا سقى الله روضةً مطراً فخصَّ بالسقي كلّ نيلوفر

تستر أوراقه زمرّدةٌ ليلاً وعند النّهار لا تستر

خافت عليه اللّصوص فاشتملت عليه ليلاً من خوف أن يظهر

إذا الزّنابيرُ من مغالقهِ لم تتحفظْ فبينها تُقْبَر

كأنّ أجفانه جفون الذي أهواه لا تستطيع أن تسهر

كأنّها كوسُ فضةٍ فُرِشتْ قيعانها بالزّمردِ الأخضر

تنعّم في حسنه ونكهته فأنت في منظر وفي مخبر

يقدّم لنا الرّمادي وصفاً دقيقاً لزهر النّيلوفر، الذي تتفتّح أزهاره العطرة البيضاء الكبيرة جميلة المنظر، ممّا جعل الزّنابير- النّحل- تزدحم عليه فترة طويلة تتغذّى من رحيقه الطّيب من غير أن تدري بأنّها أحياناً تقبر إذا ضمّ هذا الزّهر أكمامه باللّيل وهي في داخله. وشبّهه بأنّه كوس فضةٍ فرشت على سطحها الأحجار الكريمة شديد الخضرة، وشخّص أكمامه المضمومة بأنّها أجفان، وكأنّ أجفانه جفون من يحبه ويهواه. وقال في الخيري (الرّمادي، 1980م، ص69) [البسيط]

انْظُرْ غَرائبَ للخيريّ ظاهرةً عند الظّلام وعند الصُّبْحِ تَسْتَتِرُ

كأنّه سارقٌ طيباً تَفرَّقَ في الظّلماءِ فهو بِنَمِّ الرّيح مُشْتَهِرُ

وصف الخيري بأنّه غريب في طبائعه، فهو تتفتّح أزهاره في الظّلام وتستتر في الصّباح، وشبّه هذه الغرابة بسارق طيب في الظّلام أشاعت الرّياح نسيمه الطّيب المشهور.

4. 3. الماء: كما أبدع في وصف الأنهار، وهي وثيقة الصّلة بالرّوضة، كيف لا وقد امتازت الأندلس بكثرة أنهارها ووفرة خيراتها، بل إنّ معظم مدن وبلدات الأندلس تقع على ضفاف الأنهار التّي كانت مجالس أنس بالنّسبة للشّعراء، فقد اهتمّ الرّمادي بوصف الأنهار باعتبارها عنصر من عناصر الطّبيعة الصّامتة فقال في وصف نهر بين ناعورتين أي- ساقيتين-: (الرّمادي، 1980م، ص133) [الخفيف]

كَيفَ لا يَبرُدُ الهواءُ لنهرٍ بين غَرافتين كالدّيمتين

ليستا فوقه من الرّشِ والطّ طشِ على حالة بمُنْفَكّتين

وصفا الماءُ منهما إذا هُما للماء بالجري كالمُغَرْبَلَتَين

فَهوَ رشاً درّ تَساقطَ نثراً وهو طشاً بُرادةٌ من لُجين

حَسنُ الوجهِ شَفَّهُ ألثم الـ حرِّ فقد صارَ بَينَ مِروحَتَين

يصف هذا النّهر بأنّه بارد الهواء، فيه ساقيتين غير منفكتين تغربل جري المياه، وفي هذه الحالة تصفو المياه وتتساقط حباتها كالدّرر المنثور والفضّة اللامعة.

للبحر أيضاً نصيبه من أوصاف الرّمادي، فقد كان معرفة المسلمين بالبحر كفيلة بتوسيع رقعة الدّولة الإسلاميّة، فقد نخرت سفنهم عباب البحر شرقاً وغرباً، بدءا بالقائد طارق بن زياد (ت. 101ه) حين ركب موج البحر من الشّمال الإفريقي إلى أرض الأندلس عابراً المضيق الذي يسمى الآن باسمه. ولا نكاد نطالع شعر شاعر من شعراء الأندلس إلّا ونجد فيه حديثاً عن البحر، والشّاعر الرّمادي قد خاض غمار البحر مرات عديدة بحكم كثرة تنقله بين مدن الأندلس، وعرف بنظرته التّشاؤميّة للبحر بعد أن ناله شيء من أهواله" ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ...؛ لصعوبة عبوره وإظلامه، وتعاظم موجه وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه" (الحميري، 1988م، ص61). والله جل وعلا قال في كتابه العزيز: "وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربي لغفور رحيم*..." (هود: 41- 42). ومن ظواهر البحر التيّ رصدها لنا الرّمادي ظاهرة القوّة والشّدة، يقول: (الرّمادي، 1980م، ص70) {البسيط}

بحرٌ تفجر من لَيْثَيْنِ مُلْتَطِمٌ يا مَن رأى البَحْرَ من لَيثينِ ينفجِرُ

تظهر قوّة البحر وشدّته بعد تفجّره وتلاطم أمواجه في صورة أسدين يتقاتلين بكلّ شجاعة وقوّة فيضرب بعضهما بعضاً في غاية الوحشيّة. وكأنّ هذا المنظر المهيب جعل الشّاعر يتعجّب منه كما جاء في الشّطر الثّاني من البيت. موقف الشّاعر الرّمادي المنفّر من البحر وظلماته وأهواله، لم يمنعه أن يرسم صورة للأرض الواسعة التّي تشبه البحر في اتّساعه وهيبته، فيقول: (الرّمادي، 1980م، ص64) [الطّويل]

وَبَهْمَاءَ مثلِ البحرِ حرقاءَ لا ترى سبيلاً بها يهدي فبالظّنّ يهتدى

ترى الرّكبَ فيها من سُرى فوق عيسهم لغير إلهٍ راكعين وسجدا

تراها بغيرِ الآل كالبحرِ ساكناً فإن كان آلٌ خِلتها البحر مُزْبدا

وفي الأبيات شبّه الشّاعر الأرض الواسعة التّي يُشَاهَدُ فيها السّراب بالبحر المهيب في اتّساعه وليس له نهاية، فهي أرض بغير السّراب كالبحر في سكونه، وإذا وُجِدَ فيها مجموعة من النّبات فهي كالبحر المليء بالزّبد.

5. ألفاظ الطّبيعة الحيّة

تمثّل الطّبيعة الحيّة ما تمثّله الطّبيعة الصّامتة من تعلّق الشّاعر بالجمال الطّبيعي، وتصويره لهذا التّعلّق في أسلوب ذاتي وروح حديثة؛ وإن كان بعض موضوعاتها مطروقاً من قبله، بل قديماً قدم الشّعر الجاهلي وأوضح مثال لهذا:

5. 1. الفرس: هو أرشد الدّواب عَدْواً وذكاءً، وله خصال حميدة، وأخلاق مرضية، وله صفاء اللّون، وحسن الصّورة، وتناسب الأعضاء، وحسن طاعته للفارس كيف شاء صرفه وانقاد له (زكريا القزويني، 1981م، ص400 يقول الرّمادي متفنناً في وصفه لفرسه متناولاً إيّاه في البيئة الجديدة: (الرّمادي، 1980م، ص112-113) [الكامل]

قد اغتدى والصّبحُ في نوريسه تقضي العيونُ له بوجهِ عَليل

بأقبَّ لونِ الآبنوس مفضضٍ في غُرّةٍ منه وفي تحجيل

يُزْهي بتحليةِ اللّجام كما زها مَلِكٌ مُحَلًّى بالأكليل

يعلو ويخفضُ في الصّهيل كأنّما هو مُفْرِدٌ لحنًا لِكُلِّ صهيل

حتّى إذا صِدنا الوحوش فلم نَدَعْ منهنَّ غير معالمٍ وطلول

قامتْ قوائمهُ لنا بطعامنا غَضًّا وقام العُرْفُ بالمنديل

صورة الفرس في مقام الصّيد صورة طريفة بليغة وموجزة؛ فقد اغتدى والصّبح في بواكيره ونسماته العليلة ممتطياً فرسه الضّامر البطن الدّقيق الخصر، الأسود اللّون كلون شجر الآبنوس، فهو فرسٌ مرصّع بالفضة في غرّته، وفي قوائمه شعيرات بيض، ولجامه حسن المنظر محلى بالجواهر كما يحلى بها تاج الملك، يعلو صوته ويخفضه أثناء ركوضه بطريقة ملحنة ولا مثيل له في ذلك. وهو في شدّة عدوه وسرعته لحاقة بالطّرائد، كانت قوائمه هي السّبيل للإطعام؛ وكان عرفه بمثابة المنديل الذي يمسح به آثار الطّعام من الأيدي.

الشّاعر الرّمادي في وصفه للفرس لا يخرج كثيراً عن معاني وصف الفرس المألوفة في الأدب العربي، خاصة عند امرئ القيس، لكنه عرضها بأسلوبه ولمسته الفنيّة الخاصّة، وبشكلٍ يناسب ظروف البيئة الجديدة.

5. 2. كلب الصّيد: كما وقع وصف الرّمادي على الكلب بحركاته وسكناته بأبيات تعكس دقة الملاحظة والقدرة على الغوص والرّسم. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص113) [الكامل]

ولقد غدوتُ بأهرتٍ متضائل سرُّ النّفوس إليه غير ضئيل

ولربما اشتم الصّعيد بأنفه حيناً فقام له مقام دليل

مُتَتَبِّعٌ لطالبه فكأنّه في القيظ يطلبُ ظلَّهُ لمقيل

وفي الأبيات وصف الشّاعر الكلب بأنّه متّسع الفم، صغير الجسم نحيف، يبحث مُشْتَمًّا بأنفه إلى مكانٍ مرتفع من سطح الأرض ليستظلّ فيه من شدّة الحر.

5. 3. الطّير: كانت سماء الأندلس وأفنان أشجارها وقمم جبالها تعجّ بالطّيور المختلفة الألوان والأشكال، وقد استعمل الرّمادي كلّ الوسائل الكفيلة بإظهار محاسن الطّيور ومفاتنها، وقد حظي طائر الباز الصّياد الذي يبرع في مطاردة الطّيور الأخرى، بوصف الرّمادي حين قال فيه في أثناء رحلة صيد: (الرّمادي، 1980م، ص94) [الطّويل]

تَبَدَّتْ على البازي من الرّيش لأْمَةٌ فَتحسبهُ من حائرِ الطّير يَتَّقي

غدا أحمرَ العَينين تَحسبُ أنّهُ لهُ عينُ غَضبانٍ على الطّير مُحنَقِ

وَقد وُرِّسَت ساقاه حتّى كأنّما لهُ بالثُّريا خاضِبٌ لم يُحقَّقِ

كأنّ بنانَ الكفِّ كُلّ بنانة بها طُرِّفَت مِنها بنون مُعرَّقِ

وقد أُلبِستَ لونَ المِدادِ كأنّها أناملُ كتّابٍ تَخُطُّ بِمُهرَقِ

وصف الشّاعر طير الباز بأنّه يمتاز بساق طويلة، وأنّ بنان كفيه ذا عروق ألبست لون المداد، وكأنها أنامل كتّاب تخطّ في ورقة بيضاء، وهو يفوق الطّيور في الأماكن المرتفعة، وبهذه الأوصاف له غضب شديد على الطّير فيغدو عليه بعينين حمراوتين. وقال في وصف حمامة: (الرّمادي، 1980م، ص62) [الوافر]

أذاتَ الطّوقِ في التّغريد أشهى إلى أُذُني من الوتر الفصيحِ

إذا هتفت على غُصُنٍ رفيعٍ بنوحٍ أو على غُصنٍ مَريحِ

تضمُّ عليه منقاراً ونحراً كما خرّ الفجيعُ على الضّريحِ

صوّر الشّاعر هذه الحمامة بأنهاّ تهتف وتغرد على غصنٍ رفيع أو على غصنٍ أصابته الرّياح، وعندما تهتف وتغرّد تضمّ منقارها ونحرها كما يصيح أهل المتوفى بصراخٍ خريرٍ على قبر فقيدهم، وبهذا فإنّ تغريدها أشهى إلى أُذُنه من الآلة الموسيقية (الوتر).

6. ألفاظ الطّبيعة الصّناعيّة

لقد بلغت الأندلس في القرنين الرّابع والخامس الهجري وما بعدهما أعلى مراتب الرقي الفكري والثّقافي والعمراني، فشيدت المساجد وبولغ في تزيينها وتنميقها، وبنيت القصور والأبراج والمباني الفاخرة وعلقت الجسور، وازدهرت صناعات النسيج والسّلاح ومواد الكتابة ومواد البناء، قال هنري بيرس:" لئن كانت ميزة الحضارة والرّقي انتشار الأشياء الثّمينة وكثرة استعمال الأواني والأدوات النّادرة فإنّ الأندلس قد بلغت في القرن الحادي عشر قمّة الازدهار" (حنا الفاخوري، 1986م، ص71). " وحذق الأندلسيون في صناعة النّسيج النّفيس... وحذقوا كذلك في معالجة الأحجار الكريمة، فاستعملوها لزينتهم وتزيين أثاثهم" (حنا الفاخوري، 1986م، ص71). والرّمادي وقد عايش هذا الازدهار، أبى إلّا أن يخلّد ما وصل إليه الأندلسيون من براعة وحسن الذّوق، ومعالم الحضارة والتّمدن في ذلك الوقت في مقطوعات شعره، فوصف الدّار والثياب والسّفن وأدوات الكتابة كما وصف السّيف وما شابه ذلك من وسائل الحرب.

6. 1. الأبنية: برع الأندلسيون في تشييد القصور الشّاهقة، وتزيينها بالنّقوش، والزّخارف والرّسوم المختلفة متأثرين في عملهم بفنون المعمار الإسلامي المشرقي، وأساليب العمارة اليونانية والإسلامية، وجرى التّنافس بينهم في إتقان البناء، وإحكام الصنع والزّخرفة، وتتعدّد النّقوش والرّسوم التي تزيد غالباً من جمال الأبنية وسحرها في العيون. ويبدو أن أغلب الشّعراء اهتموا بوصف الأبنية اهتماماً واضحاً في آثارهم الشّعريّة، فوقفوا عندها منوهين بملامح الحسن والجمال ومواضع الدّقة والبراعة. ومن هنا نجد الشّاعر الرّمادي يحدّثنا عن قبة حسنة بقوله: (الرّمادي، 1980م، ص70) [البسيط]

وقبةٌ مالها في حسنها ثمنٌ لو أنّه فيها العز والعُمرُ

فيها مجالسُ مثلُ الحور قد فُرِشَتْ فيها الرّياضُ ولم يحللْ بها مطرُ

كأنّما فُرشَتْ بالوردِ مُتَّصلاً في الفرش فاتُّخِذَتْ منه لها أزر

كأنّما ذُعِرَتْ من خوفِ سَقْطَتِها في بحرها فبدا في لونها الذّعرُ

هي قبة حسنة ليس لها ثمن في حسنها، فيها الرّياض الجميلة، ومجالسها مفروشة بفراشٍ شديد البياض مثل الحور، واتّخذت لباساً من الورود لفراشها، وبهذا الحسن والجمال تمنّى الشّاعر القيام فيها طيلة عمره.

6. 2. الثّياب: عرف عن الأندلسيين حبهم الشّديد للنّظافة والجمال والأناقة في الملبس، حتّى قال فيهم المقري أنّهم أشدّ خلق الله حرصاً على نظافة ما يلبسون وما يفرشون. يقول الرّمادي في وصف ثوبٍ أزرق اللّون: (الرّمادي، 1980م، ص51) [المنسرح]

يا ثَوبَهُ الأزرق الذي قد فاتَ العراقيَّ في السّناءِ

يكادُ وَجْهُ الذي يراهُ يُكسَى بياضاً من الضّياءِ

كأنّهُ فيكَ بدرُ تِمّ يَقطعُ في زرقَةِ السّماءِ

ارتبط ذكر الثّياب في شعر الرّمادي كثيراً بالغزل، وهم بوصفها وهي ممتزجة ألوانها بلون من يتغزّل به، وفي هذه الأبيات ثوب المحبوب أزرق اللّون، طويل، يكاد طوله يصل إلى أعلى الأمكنة، ويكاد من يراه ينعكس الضياء في وجهه فيكسى منه. وشبّه محبوبه الذي يرتديه كأنّه قمر كامل انتشر ضوؤه في السّماء فلا يرى لونها.

6. 3. أدوات الكتابة: استعان الأندلسيون في كتاباتهم بالأدوات الكتابيّة التّي كان لها أهميّة بالغة في حياتهم العلميّة والثّقافيّة والحضاريّة، فجاء الشّعر الأندلسي بوجود أنواع عديدة منها

بالأندلس. وهذه الأدوات ما يكتب فيها كالرّق والقرطاس والورق، ومنها ما يكتب بها كالقلم والمداد. هذا بالإضافة إلى الدّواة أو المحبرة. وهي كلّها أدوات عرفها العرب في الجاهلية، وذكروها في أشعارهم ما عدا الورق، فلم يستعمله العرب سوى في عهد العباسيين. وقد أتى الرّمادي في قوله يصف القلم الذي يستعان به في الكتابة: (الرّمادي، 1980م، ص98) [الرّمل]

ناحلُ الجسمِ كأنْ قد شَفَّهُ فوقها عِشْقُ المعاني فَنَحلْ

وكأنْ قد هَجَرتْهُ عن قِلَى فهو منها في بكاءٍ مُتّصِلْ

وإذا ما صَرَّ قُضْبٌ في ثرىً أنّ في أثْرِ حبيبٍ مُحْتَمِلْ

يشبهُ السّهم أخاهُ خِلْقَةً في شباهُ والقضيبَ المعتدل

حائكٌ للوشي حتّى خِلْتُهُ كان في صنعاء مشهورَ العمل

بل كأنَّ الرّوضَ في مُهْرَقِهِ نابتٌ من دَمْعٍ فيه المنهطل

وبلا الكتّابُ ظلّ الرّوض في إثْرِ طلّ والمعاني فيه طلْ

وفي الأبيات شبّه القلم بالسّهم وقضيب الغصن المعتدل، وشخّص القلم في عشقه للمعاني بعد هجرها له عن بُغْضٍ جعله في بكاءٍ متّصل، بالشّخص المحب الذي تعلّق قلبه بمن يهوى فأحبه حباً شديداً حتّى نحل جسمه بسبب الرّحل والبحث وراء أثر المحبوب، وكأنّ الحبر وهو يجري على رأس القلم دمع ينهمر ولكن من الفم. ومن أدوات الكتابة الأخرى التّي ذكرها الرّمادي في شعره (الصّحيفة) فقال في وصفها: (الرّمادي، 1980م، ص58) [الرّمل]

وترى الأحرُفَ في أسطارها لاصقٌ بعضٌ وبعضٌ مُتْفَرِجْ

فترى لاصقها مُعْتَنِقاً وترى المفروجَ ثَغراً بِفَلَجْ

كاقترانِ الدُّرِّ تستخرجُه فِكرٌ غوَّاصةٌ والذّهنُ لُجّ

وسوادٌ في بياضٍ قد حكى سُودَ خيلانٍ بِوجْهٍ ذي نَعجْ

وفي وصف هذه الصّحيفة نجد أسطرها مرةً لاصقة مع بعضها البعض كأنّها عناق بين شخصين، ومرةً أخرى متباعدة كأنّها فمٌ مبتسمٌ تباعدت أسنانه. وشبّه الأسنان باللؤلؤ الذي يستخرجه الغواصة من قعر البحر العميق. وشبّه الأسطر باللّون الأسود على هذه الصّحيفة البيضاء، بسواد الخال في وجهٍ خالص البياض.

6. 4. السّلاح: كان للحروب المتواصلة في الأندلس- خصوصاً- عصر ملوك الطّوائف الأثر الواضح لظهور شعر السّلاح الذي يصوّر الحروب التّي خاضها المسلمون ضدّ النّصارى، والأسلحة التّي كانوا يستخدمونها في المعركة وأهمية كلّ نوع، والوقوف أمام مخطّطاتهم الجارفة، التّي تحاول جاهدة للقضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس، فأخذ الشّعراء يشيدون بانتصاراتهم تشجيعاً للمسلمين واستنهاض هممهم، ومن هنا وصف الشّعراء السّلاح بأنواعه وصفاته، بل تطرّقوا إلى أجزائه أيضاً، كما وتطرّق الشّعراء إلى الأسلحة الحربيّة المتطوّرة من السّفن والأساطيل الحربيّة التّي كان لها الدّور الواضح في أرض الأندلس وذلك بحكم طبيعة بلادهم المحاطة بكثرة المياه.

فالشّاعر الأندلسي كان يستمد عناصر صوره من مخزونه الثّقافي أو من الحضارة الجديدة التّي امتزج بها وتفاعل معها فأضفت الطّبيعة على شعر السّلاح مسحة جماليّة فجاءت صوره معبّرة عن ذوقه الفني، ولطف خياله، ممّا جعل بعض صوره مبتكرة. وهذا ما نلاحظه في وصف الرّمادي للسّفن بقوله: (الرّمادي، 1980م، ص131) [السريع]

والسُّفنُ قد جَلَّلها قارُها كأنَّها أعراءُ حُبْشَانِ

كأنّها في دار مِضْمارِها خيلٌ يُصَنَّعْنَ لميدان

كأنّها والماءُ ميدانُها في الجوِّ منقضَّةُ عِقبانِ

ترى المقاذيف بأحانئِها كأنّما ترمي بنيران

لذاك تمشي مشيَ صاحٍ فلو جاوز أمستْ شبهَ نشوان

كالأعينِ الحورِ مجاذيفُهَا من حولها أشفارُ أجفان

كأنّما أبراجُها في الوغى ترمي من النِّفطِ ببركانِ

هذه السّفن مغطاة باللّون الأسود كأنها جماعات من ضروب الجراد، وتجري في الماء في فسحةٍ واسعة كفسحة ميدان سباق الخيل وترويضها، وهي في سرعة جريانها كسباق الخيل، وانطلاق العقاب في الجو، وشبّه حركة المجاديف بأطرافها بالنيران المرتمية، وشبّه مجاديفها بالعيون الواسعة التّي حولها شعر في جفونها. وشبّه أبراجها في ساحات الوغى بالجبال العالية التّي تخرج منها الحمم البركانية وتقذف اتّجاه العدو.

ومن أنواع الأسلحة الأخرى وروداً في الشّعر الأندلسي "السّيف" وهو من الأدوات الحربية القديمة التّي استخدمها الإنسان منذ العصر الحديدي عندما اكتشف الحديد وطريقة سبكه وطرقه. والسّيف عند العرب من أشهر أدوات الحرب في الجاهلية والإسلام، فهو السّلاح الرئيسي في القتال. ومن هنا جاء ذكره في شعر الرّمادي بقوله: (الرّمادي، 1980م، ص102) [الطّويل]

له حُسْنُ خَلْقٍ في العيونِ إذا بدا على أنَّه تُرْدي النّفوسَ غوائِلُهْ

تَضَاءَلَ حتّى ما تأمّلتَ شَخْصَهُ بِلَحْظِكَ إلّا خِلْتَ أنّك خَاتِلُهْ

كأنّ هَواهُ في الجماجمِ والطّلى أحَلَّ الضّنا في جِسمهِ فَهو نَاحِلُهْ

لطيفٌ كلطفِ الرّوحِ عند ولُوجِهِ فَمَسْلَكُهُ في كُلّ جِسْمٍ مَفَاصِلُهْ

وفي الأبيات شخّص السّيف بأنّه حسن الخلق يسرُّ النّاظرين في خروجه من غمده، مدافعاً عن النّفوس من كلّ شرٍّ يلحق بها، هاوياً لضرب الجماجم والأعناق، سالكاً لكلّ مفاصل الجسم، وهو بذلك يصبح ضئيل الجسم، نحيفاً في نظر كلّ من شاهده، ولكنّه في اتّجاهٍ آخر لطيف كلطف الرّوح عند دخوله إلى غمده.

7. ألفاظ الطّبيعة السّماويّه

لم يقتصر الرّمادي في وصفه على ما سبق ذكره من عناصر طبيعية، بل امتدّ بصره إلى كلّ ما حوله من ظواهر الكون المختلفة، من رعد ورياح وسحاب، وشمس وقمر، ونجوم وكواكب، واللّيل والنّهار.

7. 1. القمر: وقف الرّمادي وقفة المتأمل من القمر، فنظر إليه مُشَبِّهاً به من يهواه قبله في طلوعه وغروبه، فذكر الفم والخدّ دلالة على أنّ القمر في غيابه مثل فَمّ المحبوب، وفي ظهور كخدّ المحبوب. فيقول: (الرّمادي، 1980م، ص135) [السريع]

بدرٌ بدا يحملُ شمساً بدتْ وحَدُّها في الحسن حِدِّهِ

تَغْربُ في فيهِ ولكنّها من بعد ذا تطلُعُ في خدِّهِ

وعني الشّاعر الرّمادي كثيراً بوصف النجوم، حين يسري ليلاً لا يجد من يأنسه ويلاطفه في الكلام إلّا النجوم ببياضها وبريق لونها المتلألئ، ومن هنا شبّه سماء الأرض بلونٍ مائل إلى الأخضر وقد فرشت عليها الدّنانير مثل انتشار النّجوم في سماء الأرض. فقال: (الرّمادي، 1980م، ص91) [الطّويل]

آنسني فيك النّجومُ برعيها فدرّيُّها حَلْيٌ وبدرُ الدّجى إلفي

كأنّ سماء الأرض نِطْعُ زُمُرُّدٍ وقد فُرِشَتْ فيه الدّنانير للصّرْفِ

7. 2. اللّيل: هو ظاهرة كونية ملكت على الشّاعر حسه ومشاعره بظلمته، فكلّما جنّ عليه اللّيل وغمرته ظلمته الدّامسة، أحسّ بالوحدة والوحشة، فهو ليل طويل يراقب فيه من غاب عن أنظاره، وكأنّه في طوله امتثالاً للهجر الذي ليس له نهاية. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص82) [الطّويل]

فطال عليَّ اللّيلُ حتّى كأنّهُ قد امتثلَ الهجرَ الذي ليس يُقلِعُ

وطال انتظاري للصّباح كأنني أُراقِبُ منه غائباً ليسَ يَرْجِعُ

وقال مشبّهاً الشّعر الأسود باللّيل: (الرّمادي، 1980م، ص110) [الوافر]

وليلةٍ لمةٍ تبقى العيونُ الرّوامقُ من دُجاها في ضلال

وكنتُ عن اللّيالي غير راضٍ بحالٍ إذا جَنَتْ تَغييرَ حالي

فلمّا أن رأيتُ اللّيلَ شِبْهًا لِلِمَّتِهِ رَضيتُ عن اللّيالي

7. 3. النّهار: فتن الشّاعر باللّيل وظلامه، لكنه في المقابل فتن بالنّهار وضوئه، وشمس إشراقه وغروبه، وصوّر كلّ ذلك بفتنة وإعجاب. فمنظر الشّمس المائل إلى الغروب يوحي إلى الشّاعر بالبعد على من يحبه. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص83) [الطّويل]

ولمّا رأيتُ الشّمسَ تأفُلُ بالنّوى دعوتُ فلم أُمْنَحْ إجابة يوشع

كأنّ النّوى قد أُوجِعَتْ باجتماعنا فَبنَّا فنالتْ بُرْءَها من تَوَجُّعي

وقال في الصّباح الباكر: (الرّمادي، 1980م، ص125) [الطّويل]

بدا الصُّبْحُ من تحتِ الظّلام كأنّه خوافي جناحيْ هَيْقَلٍ بات حاضنا

وإلّا فكالثّوبِ السّامويّ مُعْلَماً شقيقاً بدا في أسفل الثّوب بائنا

وهذه صورة بيانية رائعة، فخروج الصّبح من تحت الظّلام كأنّه نعام يخفي بيضه بجناحيه، وإلّا هو في طلوعه كالثّوب السّماوي - أي أزرق اللّون- الذي يكون معلماً وبائناً للكلّ.

7. 4. **البرق:** وصف الرّمادي البررق في شعره، فتحدّث عن المطر والبرق وجماله ومدى روعته التّي يعطيها للنّفس من هدوء تام. يقول: (الرّمادي، 1980م، ص105) [الطّويل]

كأنّ اندفاعَ البرقِ بين رعوده تطايرُ نار لاصطكاك جنادلِ

أو أسْدُ الشَّر في مذُهبات سلاسلٍ إذا هي دارت نُهْنِهَتْ في السّلاسل

يشبّه اندفاع البرق بين رعوده من شدة اهتزازه بالنّار المتطايرة ضخمة الشّرارة. أو بِأُسْدٍ صَاحِبَة شرٍّ مقيّدة بالسّلاسل التّي لا تستطيع منعها من الصّياح.

7. 5. **السّحاب:** جذب السّحاب كثيراً من الشّعراء لمشاهدته في روعته وبياضه وغمامه وتساقط أمطاره، فسحر طبيعة السّحاب تشبع رغبة العين بهذه المناظر الخلابة التّي ترسم الجمال فيها، ، كما يقول في هذا الشأن الشّاعر الرّمادي: (الرّمادي، 1980م، ص99) [الطّويل]

ومُشْتَمَّةٍ للأرضِ حتّى كأنّها تَقَصَّى مُحولاً في البطاح المواحل

فجنَّت كما جنَّ الظّلامُ وأفْرَغَتْ علينا كإفْراغِ الدِّلاءِ الحوافل

أطلَّتْ غديراً في الهواء كأنّه هو البحرُ يجري بالسّفينِ الحوامل

فلو أنّها صَبَّت جميعاً لَغَرَّقَتْ ولكنما أرواحها كالمناخل

كأنّ غديرَ الماءِ بين حَبَابِه وبين شُخُوصٍ قُمْن مثلَ الأنامل

مساميرُ دُرٍّ تعتلي برءوسنا مراراً وطوراً تعتلي بالأسافل

وفي الأبيات وصف الشّاعر هذه السّحابة بأنّها ضخمة، مظلمة، مليئة بالماء، قريبة من الأرض تكاد أن تلمسها، تتّبع أثر الأرض اليابسة الخالية من المرعى، وإذا ما وجدت الأرض أفرغت عليها الماء بكثرة، وبهذه الصّورة أصبحت كثرة المياه في الهواء مثل البحر الذي تجري عليه السّفن المحمّلة بالبضائع. وشبّه حبيبات المياه النّازلة من هذه السّحابة بأنامل الأشخاص، أو بمسامير من لؤلؤٍ تعتلي الرّوس تارةً وتارةً تعتلي الأسفل.

8. خاتمة

لقد وصلنا إلى الصّفحات الأخيرة من هذا العمل الذي كان موضوعه ملامح من ألفاظ البيئة الطّبيعيّة في شعر يوسف بن هارون الرّمادي الأندلسي، لكنّنا لم نصل إلى الكلمة الأخيرة فيه. ذلك أن شعر الطّبيعة بحر عظيم لا يسع الحديث عنه في هذه الصّفحات.

من هنا ذكرنا ما تميّزت به بلاد الأندلس من طبيعة خلّابة ذات منظر جميل أفتتن بها الشّعراء، فتغنوا بها وهاموا حباً، وألهمتهم أشعارا خالدة. ومن ثمّ تحدثنا عن تجربة الرّمادي الرّائدة في وصف ألفاظ الطّبيعة الصامتة والمصنوعة والحية، فقمنا بجولة رفقة الشّاعر في رياض الأندلس النّاضرة المزهرة، واستمتعنا معه بأنغام الطّيور فوق الأشجار، ورأينا كيف يلجأ إلى التّشخيص أو أنسنة الطّبيعة وبثّها أحاسيسه وأشجانه، وكيف امتدّت نزعة حبّ الطّبيعة عنده لتؤثّر في جميع أغراضه، فهو لا يتغزّل ولا يمدح ولا يرثي ولا يهتف بالخمرة إلّا من خلال الطّبيعة الممتدّة أمام بصره، بالاستعانة بصورة فنيّة رائعة وأسلوب فريد ولغة رقيقة.

والرّمادي من ضمن الشّعراء الذين يمثّلون نهضة شعر الطّبيعة في الأدب العربي عموماً، وفي الأدب الأندلسي خصوصاً، وقد برهن على أصالة فنّه الشّعري بتجاوزه الأساليب القديمة، وإن كان يستدعي المعاني القديمة فهو لا يتّبع أسلوب القدماء في عرضها، وهذا ما يعكس شخصيته الدّائمة البحث عن الجمال الكامن في علاقة الإنسان بالطّبيعة.

9. المصادروالمراجع

- القرآن الكريم.

- ابن خفاجة: أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة، (1960م)، الدّيوان، (ط1)، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- ابن سهل: إبراهيم بن سهل الإشبيلي، (2003م)، الدّيوان، (ط3)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- البخاري: محمد بن إسماعيل، (1998م)، صحيح البخاري، (ط2، ج3)، دار ابن كثير، اليمامة-بيروت.
- الحميري: أبو عبد الله محمد الحميري، (1988م)، صفة جزيرة الأندلس: منتخبة من كتاب الرّوض المعطار في خبر الأقطار، (ط2)، مطبعة لجنة التأليف والتّرجمة والنّشر، مصر.
- حنّا الفاخوري: (1986م)، الجامع في تاريخ الأدب العربي، (ط1)، دار الجيل، بيروت.
- الرّكابي: جودة الرّكابي، (1960م)، في الأدب الأندلسي، (ط2)، مطبعة الشّرقي، دمشق.
- عبد القادر هني: د. ت، مظاهر التّجديد في الشّعر الأندلسي قبل سقوط غرناطة، د. ط.
- القزويني: زكريا القزويني، (1981م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، (ط4)، دار الآفاق الجديدة، بيروت
- محمد رضوان الدّاية: (2002م)، في الأدب الأندلسي، (ط1)، دار الفكر العاصر، لبنان.
- يوسف عيد: (2006م)، دفاتر أندلسية في الشّعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، (ط1)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس.